© ٢٠١٥ مركز بحوث القرآن
جامعة ملايا، ماليزيا

قرآنيكا، مجلة عالمية لبحوث القرآن
المجلد ٧، العدد (١)، يونيو ٢٠١٥م، ص١٢١-١٥٠

من خصائص الخطاب الإصلاحي في تفسير الإمام عبد الحميد بن باديس

باي زكوب عبد العالي[١]

(The Characteristics of the Reformist Discourse in the Tafsīr of Al-Imām Abdul Hamīd ibn Bādīs) [*]

Bey Zekkoub Abdelali

ABSTRACT

Abdul Hamīd Ibn Bādīs is a 20th Century prominent Algerian scholar known for his reform in social, religious, political and educational areas. Ibn Bādīs contributed to these areas by adopting a modern interpretation of of the Qur'ān in a suitable way for all types of people the Algerian society. This research aims to deduct the characteristics of the reformist message of Ibn Bādīs. It starts by the biography of Ibn Bādīs, followed by the meaning of the concept of discourse. Finally, discusses, through an Analytical study, the characteristics of the Reformist discourse of Ibn Bādīs. The researcher concludes that Ibn Bādīs's methodology of the Quranic interpretation, is a modern method that covers almost various aspects of life.

Keywords: *Characteristics, Reformist Discourse, Abdul Hamīd Ibn Bādīs, Tafsīr,* Qur'ān, *Algeria.*

---

[١] دكتوراه، قسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا، مساعد تحرير مجلة الإسلام في آسيا بالجامعة نفسها. البريد الإلكتروني: beyzekoub@yahoo.fr

[*] This article was submitted on: 11/02/2015 and accepted for publication on: 14/04/2015.

ملخص

يعدّ عبد الحميد بن باديس أحد العلماء الجزائريين البارزين بالإصلاح الاجتماعي والدّيني والسّياسي والتربوي، عاش خمسين سنة في القرن العشرين الميلادي، حيث كانت ولادته سنة ١٨٨٩م، وكانت وفاته سنة ١٩٤٠م، وقد كان له دور فاعل في القيام بتفسير عصريّ لآيات قرآنية مختارة، ملائمة لكل فئات وطبقات المجتمع الجزائري يومئذ، يهدف هذا البحث إلى استنباط خصائص الخطاب الإصلاحي في تفسير ابن باديس، فيبدأ أوّلاً بالحديث عن حياة ابن باديس وعصره، ثم بالحديث عن مفهوم الخطاب؛ ومن ثمّ يتناول بالدّراسة والتّحليل خصائص الخطاب الإصلاحي الباديسي التي أوصلها الباحث إلى ثلاث عشرة خاصيّة؛ مستعينا بالمنهج الاستقرائي والوصفي والتحليلي، ويخلص الباحث في هذه الدّراسة إلى أنّ ابن باديس يجسّد أنموذج المفسِّر المصلح الذي استطاع أن يوظّف هداية القرآن الكريم في خطابه الإصلاحي العام الذي غطَّى به معظم جوانب الحياة.

كلمات دالَّة: الخطاب الإصلاحي، تفسير، عبد الحميد بن باديس، القرآن.

١ مقدمة

لقد كانت المرحلة التي عاش فيها عبد الحميد بن باديس إبَّان الاحتلال الفرنسي الغاشم توصف بأصعب المراحل في تاريخ الجزائر القديم والحديث، حيث تقهقرت فيها الجزائر في جميع المجالات، إضافة إلى بعد عموم النّاس عن تعاليم دينهم. فهم من ناحية ينظرون بعين الإعجاب إلى مدنية فرنسا وما فيها من عِزٍّ وسيادة، وتقدّم علمي وعِمراني مما يدفعهم إلى تقليدها في كل شيء حتى سيّئاتها، وينظرون بعين الازدراء إلى كل شيء عند المسلمين حتى أعزّ عزيز مما يدفعهم إلى ترك العمل بالإسلام كمنهج حياة من ناحية أخرى. وقد فرض هذا الظَّرف الصَّعب على ابن باديس أن يسلك طريق أجداده وهو طلب العلم حتّى يسهم في إصلاح الجزائر وإعادة ثقة الناس بدينهم وثقافتهم وحضارتهم، والأخذ بأيديهم إلى الطريق

الأقوم، وبالفعل فقد تحقّق أمل ابن باديس عندما ارتحل إلى المشرق والمغرب العربي طالباً للعلم النّافع والصالح لمعالجة أدواء قومه.

استطاع ابن باديس بعد خمس سنين قضاها خارج الجزائر أن يضع المنهج، ويحدّد الأهداف، وينظّم الرّجال، ويُعِدَّ العُدّة لمواجهة الاحتلال الفرنسي من عدّة جبهات كلّها تصبُّ في تعليم الإسلام والعربيّة، وتثبيت العروبة والهُويّة، ومحاربة الجهل والأمّيّة.

وفي الحقيقة، فقد رأى ابن باديس مع صديقه المقرّب البشير الإبراهيمي عن قناعة، وبصيرة ثاقبة، ودراسة دامت لياليَ وأيّاماً أن الحلّ يكمن في تربية جيل قرآنيّ ينهض بالجزائر دِيناً ودُنياً، وأنّ الطريقة المثلى في تربية هذا الجيل هي: تربيّتهم على فكرة صحيحة، وجعل قلوبهم معلّقة بالقرآن والمساجد، والحرص على غرس الفضائل في نفوسهم، ولا يُشترَط في ذلك التوسّع في العلم الذي لا فائدة ترجى من ورائه. وقد كان لابن باديس إيماناً عميقاً بأنّ العمل التفسيري هو أفضل الطرق وأخصرها إلى التغيير والإصلاح والتجديد.

٢ ابن باديس: حياته وعصره

هو الإمام المصلح عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، ينتهي نسبه إلى المعزّ بن باديس الصّنهاجي مؤسس الدّولة الصنهاجية التي حكمت مملكة القيروان في شمال إفريقيا بعد دولة الأغالبة ودولة الفاطميين. ولد سنة ١٨٨٩م في الجزائر بمدينة قسنطينة تحديداً، ونشأ بها، أمّا عن سيرته العلميّة فقد تلقّى مبادئ العلوم، والتحق بجامع الزيتونة، ولما تخرج سافر لزيارة البلاد الشرقية، ولما عاد إلى وطنه اشتغل بالحركة الوطنية والدّفاع عن الجزائر، وعن اللّغة العربية، ومحاربة الاستعمار الفرنسي، واشتغل بالعلوم الدينية، والصحافة، والتحرير في الصحف، وشارك في تأسيس جريدة النّجاح، وفي سنة ١٩٢٦م أنشأ جريدة المنتقد، وتولى رئاسة تحريرها، ولما عطّلتها الحكومة أصدر مجلة الشّهاب، وأصدر أيضاً صحفاً أخرى: الشريعة، والسنة المحمدية، والصراط، وكان في كتاباته وخطبه يعتبر الدّفاع عن الوطن قبل كل شيء، والتحرّر من الاستعمار، وإصلاح القضاء الإسلامي، وعدم خضوعه للقضاء الفرنسي. وفي سنة ١٩٣١م أسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وانتُخِبَ رئيساً لها، واشتغل بتدريس تفسير القرآن الكريم والعلوم بالجامع الأخضر. ولما أتمّ التفسير أقيمت بمناسبة ختمه

احتفالات كبيرة سنة ١٩٣٨م حضرها ألوف من مختلف المدن الجزائرية، وتخرّجت عليه طبقة من العلماء والأدباء فكانوا روّاد النّهضة الجزائرية الحديثة في العلم، والأدب، والوطنية. توفي سنة ١٩٤٠م في الجزائر[١].

أما عن عصره، فقد شهد عصر ابن باديس تحكّم ثقافة المستعمر الفرنسي في الجزائر، وتأثر بعض النّخبة من أبناء الجزائر بها، وكذا سيطرة الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي سيطرة واسعة مما أدّى إلى انتشار البدع والخرافات والاعتقادات الواهية. هذه الحالة السيّئة أقلقت ضمير العلماء المصلحين في الجزائر وهذا ما عبّر عنه الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة (ت ١٩١٧م) في قوله:

"فمن لكتاب الله يكشف سرّه *** ويشرحه وفق الفنون الحواضر"[٢].

فقد كان هؤلاء المصلحون يدركون أنّ أفضل طريق لإخراج الأمّة الجزائرية من ظلمات الجهل والوهم والخرافة إلى نور الهداية والتوحيد هو تفسير كتاب الله عز وجل وفق مقتضيات العصر الحديث حتى يسهم في معالجة القضايا الفكرية والشرعية التي ابتليت بها الأمة الإسلامية على العموم، والشعب الجزائري على الخصوص. وقد حقّق الله رغبتهم هذه عندما شرع ابن باديس في تفسير القرآن الكريم تفسيراً شفوياً للناس في مسجد قسنطينة ابتداء من سنة (١٩١٣م)، وعمره يومئذ أربع وعشرون سنة. وفي سنة (١٩٢٥م) أصدر ابن باديس مجلة الشهاب الأسبوعية التي تحوّلت ابتداء من سنة (١٩٢٩م) إلى مجلّة شهرية. هنا بدأ ابن باديس يحرّر بقلمه تفسير بعض الآيات من القرآن الكريم، ومن ثمّ ينشرها في هذه المجلة أملاً منه أن يسهم في نهضة الشعب الجزائري فكراً وعقيدةً وسلوكاً. وقد سلك ابن باديس في تفسيره لكتاب الله تعالى طريقتين: الأولى شفهيّة، والثانية: تحريريّة.

وقد أتمّ تفسيره الشفويّ عام (١٩٣٨م). يقول الشيخ الإبراهيمي: "أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على

---

[١] انظر: مجاهد، زكي محمد، **الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٤م)، ج٣، ص ١٠٣٩.

[٢] محمد رشيد رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، (مصر: مطبعة المنار, ط١، د.ت)، ج٣، ٣٥٠.

الطريقة السلفية. وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر"[١]. وعلى إثر هذا الختم أقام رجال جمعية العلماء حفلاً تكريميّاً بهيجاً، وذلك تقديراً لجهود ابن باديس في تفسير القرآن الكريم لمدة نيّف وعشرين سنة، وبهذه المناسبة الكريمة يقول البشير الإبراهيمي: "هذا اليوم الذي يختم فيه إمام سلفي تفسير كتاب الله تفسيراً سلفياً ليرجع المسلمون إلى فهمه فهماً سلفياً، في وقت طغت فيه المادة على الروح ولعب فيه الهوى بالفكر، وهفت فيه العاطفة بالعقل، ودخلت فيه على المسلم دخائل الزيغ في عقائده وأخلاقه وأفكاره"[٢].

أما تفسيره المدوّن فلم يُتمَّه، وهو عبارة عن مجموعة دروس في تفسير آيات متفرقة ومقصودة من سور المائدة، ويوسف، والنّحل، والإسراء، ومريم، وطه، والأنبياء، والحجّ، والمؤمنون، والنّور، والفرقان، والنّمل، والأحزاب، ويس، والذَّاريات، والمعوّذتين، إضافة إلى تفسيرٍ موضوعيٍّ عن: "العرب في القرآن"، نشرها ابن باديس كافتتاحيات لمجلة الشهاب الشهرية وكان يسميها **"مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"**، وأعاد نشرها وعلّق عليها الأستاذان محمد الصالح رمضان الجزائري وتوفيق محمد شاهين المصري في مجلد واحد فقط، عدد صفحاته أربعمائة من الحجم المتوسّط[٣].

قال البشير الإبراهيمي وهو يتحسّر على عدم تدوين تفسير ابن باديس: "لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير، ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئا منها. وضاع على الأمة كنز علم لا يقوّم بمال، ولا يعوّض بحال. ومات فمات علم التفسير وماتت "طريقة ابن باديس" في التفسير. ولكن الله تعالى أبى إلا أن يذيع فضله وعلمه. فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس، وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة "الشهاب" ويسميها "مجالس

---

[١] الإبراهيمي، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، (مصر: مطبعة المنار, ط١، د.ت)، ج١، ص٣١٨.

[٢] المصدر السابق، ج١، ص٣٦٢.

[٣] ابن باديس، عبد الحميد، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تحقيق: أحمد شمس الدّين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٥م).

التذكير من كلام الحكيم الخبير "، وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له، كما أنها نموذج من أسلوبه الكتابي"[١].

وأعتقد أنّ عدم كتابة ابن باديس لتفسير كامل يعود إلى ما يراه ابن باديس نفسه في أن المفسرين الأقدمين قد سدّوا هذا الدَّين عن الأمّة، لهذا فلا حاجة عنده إلى إعادة كتابة تفسير كامل لكونه حسب رأيه مشغلة عن العمل المقدّم.

٣ مفهوم الخطاب

للخِطاب مفهومان، مفهوم لغويّ: استعملته العرب، وورد في القرآن الكريم، وفي السنّة النّبويّة المطهّرة، وفي المعاجم التي تُعنى باللّغة العربيّة الشريفة؛ ومفهوم اصطلاحيّ: وهو ما تُدُووِلَ العمل به عند أهل العلم على وجه العموم، والدعاة إلى الله على وجه الخصوص.

١-٣ على مستوى المفهوم اللُّغوي:

جاء في: (لسان العرب)، الخِطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخِطاباً، وهما يتخاطبان[٢]. وقد جاء في: (الرائد)، الخطاب: مصدر خاطب، ما يكلّم به الإنسان صاحبه[٣]. والخطاب كما ورد في: (الكليات)، هو الكلام المقصود به إفهام من هو متهيّئ لفهمه، والكلام الذي لم يقصد به إفهام المستمع، فإنّه لا يسمَّى خِطاباً[٤]. احترز "بمن هو متهيّئ لفهمه" عن النائم، والمجنون، والصبيّ غير المحتلم.

أيضاً وردت كلمة خَطَبَ في القرآن الكريم بصيغة "خطاب" ثلاث مرّات، في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص:٢٠) والمقصود بفَصْل الخِطَابِ هو "فصل الخصام

---

[١] المرجع السابق، ص ٢١.

[٢] انظر: ابن منظور، أبو الفضل، **لسان العرب**، ت: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصاوي العبيدي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط٣، د.ت)، ج٤، ص١٣٤.

[٣] انظر: مسعود، جبران، **الرائد معجم لغوي عصري**، (بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٧م)، مج١، ص ٦٣١.

[٤] انظر: الكفوي، أبو البقاء، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، ت: عدنان درويش، ومحمد المصري، (بيروت، الرسالة، ط٢، ١٩٩٣م)، ص ٤١٩.

بتمييز الحق من الباطل، ورفع الشّبه، وإقامة الدلائل"[١]؛ وقوله سبحانه: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ (ص:٢٣). حيث المقصود بعَزَّنِي فِي الخِطَابِ أنّه "غَلَبني في المكَالَمة"[٢]؛ وقوله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (النبأ:٣٧)، والمعنى المراد مِن لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً أي: "لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب"[٣]. ويلاحَظُ في هذه الآيات البيّنات أن الخطاب قد اقترن مرّةً بالحكمة، ومرّةً بالإقناع وقوّة البيان والحجة والبرهان، وأخرى بالعظمة والهيبة. وهذه كلّها من مواصفات الخطاب الناجح.

ثانياً: على المستوى الاصطلاحي:

جاء في: "الموسوعة العربية العالمية"، الخَطابة (أو الخِطاب): "هي قول المنطوق المخاطَب به جمع من الناس بقصد التعليم أو الإقناع أو التسلية"[٤]. وجاء في: "الموسوعة العربية الميسّرة والموسّعة"، الخَطابة (أو الخِطاب): "فنّ مخاطبة الجمهور، القائم على الإقناع والاستمالة. وتعتمد الخطبة على الجمل القصيرة، والألفاظ المألوفة، والمعاني القريبة، والترتيب المنطقي، ووحدة الموضوع، ومخاطبة العقل، والقلب معاً، وتزدهر في الاضطرابات والانقسامات ومجالات حرية القول"[٥]. وهناك من عرّف الخطاب بأنّه "يمثّل جملةً من المنطوقات أو التشكّلات الأدائية التي تنتظم في سلسلة معيّنة لتنتج –على نحو تاريخي– دلالة ما، وتحقق أثراً معيّناً. ويخلق

---

[١] القاسمي، جمال الدّين، **تفسير القاسمي**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م)، ج٨، ص ٢٤٦.

[٢] المرجع السابق، ج٨، ص ٢٤٧.

[٣] المرجع نفسه، ج٩، ص ٣٩٣.

[٤] مجموعة من الأساتذة، **الموسوعة العربية العالمية**، (الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٦م)، ج١٠، ص ١٠٤.

[٥] ياسين صلاواتي، **الموسوعة العربية الميسرة والموسعة**، (بيروت، مؤسسة التاريخ العربي، ط١، ٢٠٠١م)، مج ٤، ص ١٦١٥.

الخطاب تفاعلاً حوارياً مع المجال الاجتماعي الذي يعدّ مهاداً لتلقي موضوعه، فيتجادل مع غيره من الخطابات ويشتبك مع وعي المخَاطَبين في محاولةٍ لدفعهم إلى حقل قناعاته"[١].

يتبيّن لنا بعد معرفة ماهية الخطاب ودلالاته على المستوى اللغوي والاصطلاحي معاً، أنّ الخطاب الإسلامي هو عبارة عن "أداةٍ في التبليغ وتفنيد حجج الخصوم، وإعلان قيم الإسلام ومُثُله وآدابه وأحكامه"[٢]. وهناك من عرّف الخطاب الإسلامي بأنّه يمثّل "مجمل الفعاليات الاتصالية الإسلامية —من وسائل وأساليب ومناهج ومواقف– المجنّدة والمستخدمة في العمليات التغييرية المخطّطة أو العفوية، الهادفة إلى نصرة الإسلام كمنهج، وكتاريخ وكحضارة وكمستقبل، والتمكين له في الواقع الإسلامي أوّلاً، والواقع الإنساني ثانياً"[٣].

وعموماً، يرى الباحث من خلال معاجم اللغة العربية، ونصوص القرآن الكريم، والتّعاريف الاصطلاحية بأنّ الخطاب هو: إيصال الكلام إلى النّاس بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن قصد الإفهام، والإقناع، والمغالبة، عن طريق إقامة الحجج، ورفع الشّبه، وتمييز الحق من الباطل لأجل التّمكين للإسلام في الواقع الإنساني ونصرته.

٤ خصائص الخطاب الإصلاحي عند ابن باديس

إنّ خبرة ابن باديس بأمور قومه، ووعيه بالأيّام النَّحْسَاتِ التي كانت تمرّ بها الجزائر إبّان الاحتلال الفرنسي، أهّله لأن يكون خطيباً مفوَّهاً في شتّى مجالات الحياة: في المجال الاقتصادي، والسياسي، والتربوي، والتاريخي، والديني، والإعلامي، وغير ذلك.

---

[١] منير، وليد، **النص القرآني من الجملة إلى العالم**، (القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م)، ص ١٧.

[٢] مجموعة من الأساتذة، **الموسوعة العربية العالمية**، ج١٠، ص ١٠٦.

[٣] مراح، محمد، **من خصائص خطاب التغيير الإسلامي عند الإمام عبد الحميد بن باديس**، (القاهرة، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٩٩، سبتمبر ٢٠٠١م)، ص ٩٣.

بهذه الخبرة الطويلة، وهذه اليقظة المتّقدة، استطاع ابن باديس في وقت مبكِّر أن يحسم كثيراً من القضايا الكبرى[١] التي كانت ستشكل خطراً رهيباً على مستقبل الجزائر المسلمة لولا عناية الله، ثم يقظة ابن باديس بما يحاك حول وطنه.

ولنعد الآن إلى ذكر أهمّ خصائص خطاب الإصلاح الإسلامي التي وردت في تفسير الإمام المصلح عبد الحميد ابن باديس:

١-٤ الدّعوة إلى استخدام القرآن والسنة: من خصائص خطاب ابن باديس الإصلاحي استخدام أدلّة القرآن والسنة من أجل تقريب المسلمين إلى أصل دينهم وتذويقهم حلاوته، قال ابن باديس: "ومما ينبغي لأهل العلم أيضاً –إذا أفتوا أو أرشدوا– أن يذكروا أدلّة القرآن والسنّة لفتاويهم ومواعظهم، ليقرّبوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته، ويعرّفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائماً على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب، وأثر في النفوس. فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إن كنتم للخير تريدون"[٢].

٢-٤ الدّعوة إلى الفهم الصحيح والعمل المستقيم: كان ابن باديس يدعو المسلمين إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً، وتطبيقه تطبيقاً مستقيماً بحيث يجعلهم ينهضون بأنفسهم وبغيرهم من الأمم، لأنّ المسلمين ما تأخّروا في جميع شؤون حياتهم إلا بسبب غفلتهم عن حقيقة دينهم علماً وعملاً ومنهجاً. عند قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء:١٨). يقول ابن باديس: "وقد أفادت هذه الآيات كلها، أن الأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها، موصلة –بإذن الله تعالى– من تمسّك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه، بمقتضى أمر الله وتقديره وسنّته في نظام هذه الحياة والكون، ولو كان ذلك المتمسّك بها لا

---

[١] مثل: وجوب تعليم المرأة، القضاء على الفوارق العرقية، المحافظة على ثوابت الأمّة الجزائرية، المطالبة بحقوق الأمّة الجزائرية، فتوى تحرّم التجنّس بالجنسية الفرنسية (...).

[٢] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، تفسير الآية: ٣٦ من سورة الإسراء، ص ١٠٥.

يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدّق المرسلين. ومن مقتضى هذا: أنّ من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية، ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم"[١]، ثم يواصل حديثه ليقول: "السبب في التقدّم والتأخّر هو التمسّك أو الترك للأسباب، ولو أنّ المسلم تمسّك بها كما يأمره الإسلام، لكان –مثل سالف أيّامه– سيّد الأنام"[٢].

٣–٤ الدّعوة إلى إصلاح النفوس: إن إصلاح الفرد هو أساس إصلاح المجتمع، فلا يمكن أن ننتقل إلى إصلاح المجتمع إلا بعد إصلاح الفرد، ثم الأقرب فالأقرب. وهذا هو حقيقة قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الرعد:٥٣). فالتغيير الحقيقي إذاً يبدأ بالعناية بالفرد الواحد لينتقل بعد ذلك إلى الجماعة الكبيرة أو المجتمع، وعلى هذا المنهج قامت دعوة رسول الله ﷺ، لأجل ذلك نجد أنّ ابن باديس كان يختار في تفسيره أو في خطاباته الوعظية الآيات التي تُعنَى بإصلاح النّفوس وتزكيتها. عند قوله ﷻ على سبيل المثال لا الحصر: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (الإسراء:٢٥). قال ابن باديس: "وصلاح القلب –بمعنى النفس– بالعقائد الحقّة، والأخلاق الفاضلة، وإنما يكونان بصحّة العلم، وصحّة الإرادة، فإذا صلحت النّفس هذا الصلاح صلح البدن كله، بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة، وإذا فسدت النّفس من ناحية العقد، أو ناحية الخلق، أو ناحية العلم، أو ناحية الإرادة فسد البدن، وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السّداد، فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس: إما مباشرة وإما بواسطة. فما من شيء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق والخير والعدل والإحسان إلا هو راجع عليها بالصّلاح، وما من شيء نهى الله تعالى عنه من الباطل والشّرّ والظلم والسوء إلا هو عائد عليها بالفساد. فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب، وإرسال الرسل، وشرع الشرائع"[٣].

---

[١] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص ٥٠.

[٢] المصدر السابق، ص ٥٩.

[٣] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص ٧٣–٧٤.

٤-٤ الدّعوة إلى الاجتماع والتعاون: بعدما حثّ ابن باديس الشعب الجزائري برمّته – أي: على اختلاف أطيافه ومشاربه- على إصلاح النّفوس وتزكيّتها، دعاه إلى الاجتماع والتعاون لأجل تحقيق حاجيات الحياة، ولوازم البقاء، والتقدّم في العمران. قال ابن باديس: "الناس كلهم في حاجة مشتركة إلى بعضهم، وما من أحد إلا وله حقوق على غيره، ولغيره حقوق عليه، ولهذه الحاجة المشتركة والحقوق الممتزجة كان الاجتماع والتعاون ضروريين لحياة المجتمع البشري واطّراد نظامه"[١].

٤-٥ الدعوة إلى النّظام والشورى: بعدما دعا ابن باديس النّاس إلى الاجتماع والتعاون، شجّعهم أيضاً على النظام والشورى، وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ (النور، من الآية:٦٣). يقول ابن باديس: "إنّما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوّة، وإنّما تكون لهم قوّة إذا كان لهم جماعة منظّمة تفكّر وتدبّر وتتشاور وتتآزر وتنهض لجلب المصلحة ودفع المضرّة، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة، .. ما أصيب المسلمون في أعظم ما أصيبوا به إلا بإهمالهم لأمر الاجتماع ونظامه، إمّا باستبداد أئمّتهم وقادتهم، وإمّا بانتشار جماعتهم بضعف روح الدّين فيهم، وجهلهم بما يفرضه عليهم، وما ذاك إلا من سكوت علمائهم وقعودهم عن القيام بواجبهم في قيام المستبدّين وتعليم الجاهلين، وبثّ روح الإسلام الإنساني السّامي في المسلمين"[٢].

٤-٦ الدّعوة إلى الوحدة والاتحاد: كان ابن باديس حريصاً جدّاً على توحيد المسلمين وتجديد روابط الأخوة الإيمانية فيما بينهم، والسّعي إلى تقريب فيما بينهم حتى لا يكونوا آلة ينفّذ بها مخططات الأعداء، وتطبيقاً لهذه الدّعوة فإن ابن باديس كان يرفض فكرة إقصاء من يخالفونه في الرأي للعمل والنشاط داخل الجمعية التي كان يرأسها. قال ابن باديس: "ولنستشعر أخوّة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد ولنشرع في ذلك، غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربّنا، ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا، فبدوام السّعي واستمراره،

---

[١] المصدر السابق، الآيات: ٢٦-٣٠ من سورة الإسراء، ص ٧٨-٧٩.

[٢] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص ٣٣٥-٣٣٦.

يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله، وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربّنا، وسنة نبيّنا، وسيرة صالح سلفنا، ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق، ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوّة والعزّ والسّيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى، وليس هذا على العاملين ببعيد، وما هو على الله بعزيز"[١].

يُلاحَظُ في هذا الخطاب أن ابن باديس ربط بين الأخوّة الإيمانية وبين نيل حسنتي الدنيا والآخرة، وفي هذا إشارة إلى أنّ تحقيق العز في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الآخرة متوقّف على تحقيق الأخوة الإيمانية بين المسلمين أجمعين. وردّاً على دسائس الأعداء لأجل التفريق بين المسلمين الجزائريين باسم الجنسية والعصبية الممقوتة، يقول ابن باديس: "إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ[٢] قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرناً، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدّة والرّخاء، وتؤلّف بينهم في العسر واليسر، وتوحّدهم في السرّاء و الضرّاء، حتى كوّنت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائريّاً، أمّه الجزائر وأبوه الإسلام. وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتّحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين

[١] المصدر السابق، الآية: ٥٨ من سورة الإسراء، ص ١٢٦-١٢٧.

[٢] الأمازيغ أو البربر هم السكّان الأصليّون في الجزائر القديمة قبل الإسلام، ولما دخل الإسلام إلى الجزائر في عجز القرن الأوّل الهجري على يد التابعيّ الجليل عقبة بن نافع القرشي الفِهري (ت ٦٣هـ)، امتزجوا بالمسلمين العرب وأخذوا عنهم الإسلام واللسان العربيّ المبين، وأنجبوا منهم الأطفال، ومع مرور السنوات تلو السنوات صاروا شعباً واحداً أمُّهُ الإسلام، وأبوه الجزائر. والآن هم يتمركزون في بعض مناطق الشرق والجنوب الجزائري، ويعرفون باسم: "القَبَايِل" بحكم أنّهم عبارة عن قبائل متعدّدة. يرى ابن خلدون أنّهم من ولد كنعان بن حام بن نوح، وأنّ اسم أبيهم مازيغ. انظر: ابن خلدون، ابن خلدون، عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م)، مج٦، ص ١١٣. ويرى عثمان سعدي أنّ الأصول الحقيقية للبربر هي أصول عربية باعتبار أنّ البربر قبائل قَدِمَتْ من شبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب، عبر سيناء ومصر، واستوطنت في شمال إفريقيا، وقد استعان الباحث على إثبات هذه الرؤية بعلم دراسة الجماجم القديمة، وعلم دراسة جذور= =السلالات اعتماداً على بعض المؤرّخين المسلمين مثل ابن خلدون والطبريّ وغيرهما، وبعض المؤرّخين الغربيين النّزيهين مثل سلاوي وغوتيه وغيرهما. انظر: سعدي، عثمان، **عروبة الجزائر عبر التاريخ**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م)، ص ١١- ٢٠.

الشّرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدّرس لخدمة العلم، فأيّ قوّة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرّقهم؟ لولا الظنون الكواذب والأمانيّ الخوادع يا عجباً! لم يفترقوا وهم أقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القويّ كلا والله، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدّة في اتحادهم وقوّة لرابطتهم"[١].

قال ابن باديس في الأصل العشرين من أصول جمعية العلماء: "عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسي كل خلاف يفرّق الكلمة، ويصدع الوحدة، ويوجد للشرّ ثغرة، ويتحتّم التآزر، والتكاثف حتى تنفرج الأزمة، وتزول الشدّة بإذن الله، ثمّ بقوّة الحقّ، وادراع الصبر، وسلاح العلم، والعمل، والحكمة"[٢].

٧-٤ الدّعوة إلى طلب العلم الصحيح: من خصائص خطاب الإصلاح عند ابن باديس هو الدعوة إلى طلب العلم الصحيح باعتباره الأساس في إصلاح وترقية المجتمع الجزائري المسلم، وتبوّئه للمنزلة الحسنة بين مجتمعات الأمم الأخرى، قال ابن باديس: "سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره (أي: علمه) ارتباطاً وثيقاً: يستقيم باستقامته ويعوجّ باعوجاجه، ويثمر بإثماره، ويعقم بعقمه؛ لأنّ أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات، واعتقاداته ثمرة إدراكه الحاصل عن تفكيره ونظره"[٣]، ويقول أيضاً: "علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميّتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة، وبذلك نستحق أن نتبوّأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم"[٤].

يلاحظ من الخطاب أعلاه أن ابن باديس لم يخص الرجل فقط بهذه الدعوة، وإنّما دعا المرأة أيضاً إلى طلب العلم باعتبارها شقيقة الرجل وشريكته في البيت والحياة، وردّاً على الذين دعوا إلى رفع حجاب السّتر عن المرأة زعماً منهم بأنّه يشكّل حاجزاً بين المرأة وبين

---

[١] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج٣، ص ٤٨٣.

[٢] المرجع السابق، ج٣، ص ١٣٤.

[٣] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، الآية: ٣٦ من سورة الإسراء، ص ١٠٢.

[٤] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج٢، ص ٢٠٣.

طلبها للعلم، يقول ابن باديس: "وأمّا حجاب السّتر فإنّه ما ضرّها في زمان تقدّمها، فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكاناً عالياً في العلم وهنّ متحجبات"[١]. نستشفُّ من خلال هذا القول أنّ ابن باديس يرفض فكرة الفصل بين العلم والأخلاق لأنهما وحدة لا تتجزأ، وتأكيداً لهذه الرؤية فعند قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٦). يقول ابن باديس: "العلم الصحيح، والخلق المتين، هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان"[٢].

٨-٤ الدّعوة إلى حبّ الوطن: كانت فلسفة ابن باديس الإصلاحية ترتكز أساساً على خدمة وطنه الخاص الذي يفرض عليه الحدب عليه والقيام بواجباته، ويليه خدمة الأوطان الأخرى المجاورة، ثم الوطن العربي الإسلامي، ثم وطن الإنسانية العام، ويرى ابن باديس بأنّ خدمة هذه الأوطان كلّها متوقفة على خدمة كل ذي وطن خاص لوطنه كما مرّ معنا سابقاً. قال ابن باديس في كلمة بليغة: "إنّما ينسب للوطن أفراده الذين ربطتهم ذكريات الماضي، ومصالح الحاضر، وآمال المستقبل، فالذين يعمرون هذا القطر وتربطهم هذه الروابط هم جزائريون، والنّسبة للوطن توجب علم تاريخه، والقيام بواجباته، من نهضة علمية، واقتصادية، وعمرانية، والمحافظة على شرف اسمه، وسمعة بنيه، فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه، ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه"[٣].

وقد يستدلّ على هذه الرؤية أيضاً بما ذكره ابن باديس عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (لإسراء:٥٨). حيث قال: "ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه، وبدأ به في نفسه، ثم فيمن يليه ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه، ثم جميع أهل ملّته"[٤]. يلاحَظ هنا أنّ ابن باديس قدّم خدمة

---

[١] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج٣، ص ٤٢٥.

[٢] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص ٩٩.

[٣] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج٣، ص ٤٦٧.

[٤] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص ١٢٦.

العشيرة والقوم (وهو الوطن بمصطلحنا المعاصر) على خدمة أهل الملّة لأنّ خدمة الوطن ما هو إلا مطيّة لخدمة أهل الملّة. وأعتقد أنَّ حبَّ الوطن يستدعي المحافظة على ثوابته وعلى مقوّمات الشخصيّة الإسلامية، لذلك عمل ابن باديس على تعميم تعليم القرآن، والإسلام، والعربية الشريفة حفاظاً على ثوابت الأمّة الجزائرية المسلمة من أيّ محاولة داخلية أو خارجية للعبث بثوابت ومقوّمات الوطن والمواطن الجزائري.

لأجل ذلك كانت مبادئ جمعية العلماء تتلخص في الشعار الذي ينسب إلى ابن باديس وهو: "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"[١]، ويروي لنا التاريخ أنّه لما فرضت فرنسا سياسة التجنيس على الجزائريين لأجل نيل الحقوق الفرنسوية مقابل الانسلاخ على الذاتية الإسلامية، أصدر ابن باديس فتوى تحرّم التجنّس بالجنسية الفرنسية جاء فيها: "التجنّس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفع أحكام الشريعة، ومن رفض حكماً واحداً من أحكام الإسلام عُدَّ مرتدّاً عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنّس مرتدٌّ بالإجماع.." [٢]، وبهذه الفتوى حافظ ابن باديس على الشخصية الجزائرية الإسلامية من الانسلاخ من حظيرة الإسلام، والذوبان في حظيرة غير الإسلام.

٩-٤ الدّعوة إلى الوضوح في الفكرة: من خصائص الخطاب الباديسي وضوح الفكرة، ومخاطبة الناس بما يفهمون، وبما تقتضيه عقولهم حتى لا يُكذَّبَ الله ورسوله، قال ابن باديس: "فقد أُمِرنا أن نحدّث الناس بما يفهمون"[٣]. فبهذا الوضوح حظِيَ ابن باديس بالاحترام والسَّمع والطاعة لدى الخاصّة والعامّة، فانتخبته الخاصّة رئيساً لها، واتّخذته العامّة مرشداً لها، فكان بحقٍّ رئيساً ومرشداً للمسلمين الجزائريين.

١٠-٤ الدّعوة إلى الواقعية والتدرّج في التغيير: امتاز خطاب ابن باديس الإصلاحي بمراعاة مقتضيات الزمان والمكان والحال، والتدرّج في معالجة الواقع الجزائري الذي كانت تنخلع

---

[١] تركي، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (١٩٣١- ١٩٥٦)**، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط١، ٢٠٠٤م)، ص ٤٤.

[٢] المرجع السابق، ص ٤٩.

[٣] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، الآية: ٣٦ من سورة الإسراء، ص ١٠٣.

منه القلوب، وترتعد منه الفرائص، وفي معرض حديث ابن باديس عن انحراف عقائديٍّ وقع فيه السّواد الأعظم من عامّة الجزائريين، وهو التوجّه بشيء من الدعاء لغير الله عز وجل، قال: "فليحذر قرّاؤنا من أن يتوجّهوا بشيء من دعائهم لغير الله، وليحذّروا غيرهم منه، ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين، بما استطاعوا، عسى أن يتنبّه الغافل، ويتعلم الجاهل، ويقلع الضالُّون عن ضلالهم، ولو بطريق التدريج؛ وبذلك يكون قرّاؤنا قد أدَّوا أمانة العلم، وقاموا بفريضة النّصح، وخدموا الإسلام والمسلمين"[١].

ويُلاحَظُ في هذا الخطاب أمران مهمّان، الأوّل: التزام ابن باديس الواقعية في معالجة هذا الضّلال العقائدي، لأنّ معرفة الواقع يتطلّب من الفقيه أو المصلح معرفة الدّاء قبل تنزيل الدّواء؛ والثاني: الإسهام في معالجة هذا الانحراف العقائدي بطريق التدريج لا بطريق التهوّر والحدّة. وقال ابن باديس راجياً ومتفائلاً لعموم الخير: "إنّ المطّلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنّها قد شعرت بالدّاء، وأحسّت بالعذاب، وأخذت في العلاج، وإن ذلك، وإن كان يبدو –اليوم– قليلاً، لكنه – بما يحوطه من عناية الله، وما يبذل فيه من جهود المصلحين– بإذن الله كثيراً"[٢].

١١–٤ الدّعوة إلى الشّمول: من خصائص خطاب الإصلاح عند ابن باديس مراعاة الشمولية عند مخاطبة الإنسان، وذلك من منطلق أنّ الإسلام رسالة للإنسان في كلّ مجالات وشؤون حياته، لأجل ذلك لم يكن خطاب ابن باديس الإصلاحي مقتصراً على جانب واحدٍ من جوانب الحياة البشرية، وإنّما حاول ابن باديس في خطاباته استيعاب جميع جوانب الحياة التي تخدم الإنسان في كل أطواره، ولعلّ كثرة تعامل ابن باديس مع القرآن الكريم تأمّلاً وتلاوةً، وتفسيراً وتطبيقاً، هو الذي أكسبه هذه الشمولية، أيضاً فإنّ طبيعة الواقع الذي كان سائداً في الجزائر وقتذاك دفعه للعمل بهذا المبدأ النّبيل.

---

[١] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، الآية: ٥٧ من سورة الإسراء، ص ١١٩– ١٢٠.

[٢] المصدر السابق، الآية: ٧٠ من سورة الإسراء، ص ١٢٧.

إنّ المتأمّل في تفسير ابن باديس يجد أنّ خطابه الإصلاحي قد اتّسم بالشموليّة، ولنقف الآن عند قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات: ٥٠). قال ابن باديس: "ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السّعي والعمل، وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت، ورغد العيش، وتوسيع العمران، وتشييد المدنية، بل المقصود الفرار من شرورها وفتنتها، وتناول ذلك كلّه على الوجه المشروع هو من الفرار إليه، والدّخول تحت شرعه. وقد ضلّ قوم فزعموا ذلك طاعة وعبادة، فعطّلوا الأسباب، وخالفوا الشريعة، وحادوا عمّا ثبت من السنة، وفيهم سئل إمام الحديث والسنة أحمد بن حنبل رحمه الله؛ سئل عن قائل: أجلس لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال: هذا رجل جهل العلم: أما سمع قول النبيّ ﷺ: "إنّ الله جعل رزقي تحت ظل رمحي" [١]؟ وقوله: "تغدوا خِماصاً وتروح بِطاناً"؟! [٢]"

يلاحَظ هنا أنّ ابن باديس لم يقتصر على الخطاب الوعظي في تفسيره لهذه الآية الكريمة كما هو ديدن بعض المفسرين[٣]، وإنّما حاول أن يخرج من هذه الدائرة الضيّقة إلى دائرة

---

[١] رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **"جُعل رزقي تحت ظلّ رُمحِي، وجُعلَ الذِلَّة والصَّغَار على من خالف أمري"**. راجع: البخاري، إسماعيل، **الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيّامه**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٢م)، كتاب الجهاد والسّير، باب ما قيل في الرِّماح، مج٢، ص ٢٥١.

[٢] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص ٣٦٢-٣٦٣. والحديث: رواه ابن ماجه من حديث عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **"لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطّير، تغدوا خِماصاً، وتروح بِطاناً"**. راجع: ابن ماجه، محمد بن يزيد، **سنن المصطفى ﷺ**، تحقيق: محمود حسن نصار، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨م)، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، ح ٤١٦٤، مج٤، ص ٤٩٤.

[٣] لقد فسّر الشيخ جمال الدّين القاسمي هذه الآية بقوله: "أي فِرُّوا من عقابه إلى رحمته، بالإيمان به، واتّباع أمره، والعمل بطاعته". راجع: القاسمي، ج٩، ص ٤٥؛ وأمّا أحمد مصطفى المراغي فقد فسّر هذه الآية بقوله: "أي فالجئوا إلى الله واعتمدوا عليه في جميع أموركم، واتبعوا أوامره، واعملوا على طاعته، ثم علّل الأمر بالفرار إليه بقوله (إني لكم منه نذير مبين) أي إني لكم نذير من الله أنذركم عقابه، وأخوّفكم عذابه الذي أحلّه بهؤلاء الأمم التي قص عليكم قصصها، وإني مبيّن لكم ما يجب عليكم أن تحذروه". راجع: المراغي، مصطفى أحمد، **تفسير المراغي**، (بيروت، دار الفكر، د.ط، د.ت)، مج٩، ج٢٧، ص ١٠.

أوسع عندما تحدّث عن أهميّة اتخاذ الأسباب لتحصيل القوت، ورغد العيش، وتوسيع العمران، وتشييد المدنية وهذا كلّه يشمل الخطاب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

١٢-٤ الدّعوة إلى عفّة اللّسان والقلم: امتاز خطاب ابن باديس الإصلاحي بعفّة قلمه عن الشّتم والكذب والخيانة، وعفّة لسانه عن الفحش والشّتم البذيء الرّقيع. قال ابن باديس لمن عيّره ووصمه بأقبح الصِّفات: "لو كنا نستطيع أن ننحطّ إلى تلك الدّركة السّافلة، ونجاري أولئك المحرّرين في أسلوبهم لقلنا لهم أنهم أنذال، سفهاء ليس لهم ضمير، ولا يعرفون شهامة ولا كرامة، لكننا لا نقول لهم هذا، ولا نوجّه لهم أمثال هذا الكلام، فلنا آدابنا الإسلامية، ولنا من شهامتنا العربية ما يمنعنا عن الانغماس في مستنقعهم النّتن"[١]. وقال أيضاً: "على الدّاعي إلى الله والمناظر في العلم، أن يقصد إحقاق الحق وإبطال الباطل، وإقناع الخصم بالحق وجلبه إليه؛ فيقتصر من كل حديثه على ما يحصل له ذلك، ويتجنّب ذكر العيوب والمثالب، ولو كانت هنالك عيوب ومثالب؛ اقتداء بهذا الأدب القرآني النّبوي في التجاوز مما في القوم عن كثير، وفي ذكر العيوب والمثالب خروج عن القصد وبعد عن الأدب، وتعدٍّ على الخصم وإبعاد له، وتنفير عن الاستماع والقبول، وهما المقصود من الدعوة والمناظرة"[٢].

لقد مرّ معنا سابقاً ذكر إنكار ابن باديس تلميحاً لا تصريحاً[٣] على من زعموا أنّ كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه، أو طمع في ثوابه، وفي هذا يقول ابن باديس: "هذا كلّه دون أن نصرّح بشخص ولا بطائفة؛ لأنّ الكلام مع القول والدّليل، فأبى حضرته إلاّ أن يحمّل كلامنا على طائفة مخصوصة يحبّ هو اليوم التظاهر بالدّفاع عنها، ثم تطرّق من ذلك إلى رمينا بما يناسب غرضه من الجراءة وقلاّة النّصيحة، والتطاول

---

[١] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج٣، ص ٣١٩-٣٢٠.

[٢] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، الآيتان: ١٥ و١٦ من سورة المائدة، ص ٣٢٩.

[٣] يلاحَظ بأنّ ابن باديس لم يتفوّه باسم المخالِف في أوّل الأمر، ولكن لما أبى المخالِف إلا العناد والتطاول على الحقّ وعلى الأئمة اضطرّ ابن باديس إلى ذكر اسمه تحذيراً للنّاس من أفكاره التي حادت به عن طريق الصّواب.

على الأئمّة إلى ما يريد أن يصفنا به؛ ليقول القارئ إنّ حضرته موصوف بضدّه، وربّك أعلم بتلك الأوصاف وأهلها"[١].

إنّ القارئ لهذا المقال يلاحِظ أنّ ابن باديس كان متأدّباً مع مخالِفه؛ فتارةً يدعوه بالشيخ، يقول ابن باديس مثلاً: "والآن نعطف بالكلام على مقال الشيخ ونحصره في مواضع"[٢]، وتارةً أخرى يخاطبه قائلاً: "فأبى حضرته"[٣]، "لكن حضرته"[٤]، "وفي الحقّ أنّ حضرته"[٥]. وفي الحقّ يكفي هذا دليلاً على عفّة قلم ابن باديس عن الشّتم والخيانة، وعفّة لسانه عن الفحش والتّطاول.

١٣-٤ الدّعوة إلى المرونة في الجزئيات والثبات في الكليّات: من خصائص خطاب الإصلاح الإسلامي عند ابن باديس المرونة في الجزئيات والفروع، والثبات في الكليات والأصول، كان ابن باديس يرحّب بكل جديد يأتي من الداخل أو من الخارج شريطة ألاَّ يتصادم هذا الجديد مع ثوابت الإسلام، وثوابت الأمّة الجزائرية بما في ذلك من إسلامٍ، وعروبةٍ[٦]، وحضارةٍ، وتاريخٍ، وهُويةٍ، وعوائدَ وأخلاقٍ حسنة. ثم إنَّ هذه الثوابت والكليّات هي من الرّكائز الأساسية التي لا ينبغي التنازل عنها، أو النّظر فيها بغية التراجع عنها مهما يكن من أمر، لأنّه بزوالها واندثارها لا بقاء لمعنى العروبة، والقرآن والإسلام في الجزائر. وفي معرض حديث ابن باديس عن أهميّة الاجتهاد يقول: "لا نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبيّ ﷺ من الحديث الضعيف؛ لأنّه ليس لنا علم به، فإذا كان الحكم ثابتاً بالحديث الصحيح مثل قيام الليل، ثم وجدنا حديثاً في فضل قيام الليل بذكر ثواب عليه مما يرغّب فيه جاز عند الأكثر أن نذكره مع التنبيه على ضعفه الذي لم يكن شديداً على وجه الترغيب، فما لم يثبت بالدّليل الصحيح في نفسه، لا يثبت بما جاء من الحديث الضعيف في

---

[١] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، الآيتان: ٦٥ و٦٦ من سورة الفرقان، ص ٢٠٩.

[٢] المصدر السابق، الآيتان: ٦٥ و٦٦ من سورة الفرقان، ص ٢٠٩.

[٣] المصدر نفسه، الآيتان: ٦٥ و٦٦ من سورة الفرقان، ص ٢٠٩.

[٤] المصدر نفسه، الآيتان: ٦٥ و٦٦ من سورة الفرقان، ص ٢٠٩.

[٥] المصدر نفسه، الآيتان: ٦٥ و٦٦ من سورة الفرقان، ص ٢٠٩.

[٦] العروبة هنا تشمل القومية العربية، واللغة العربية.

ذكر فضائله، باتفاق من أهل العلم أجمعين"[١]. وهنا فيه إشارة على ضرورة المحافظة على الكليات التي لا تثبت إلا بالأدلّة الصحيحة.

٥- الخاتمة

هكذا إذن كان ابن باديس ابن زمانه، يعيش مع واقعه، ويدور معه حيث دار، وما تعدُّد خصائص الخطاب الإصلاحي عنده إلا دليلاً على سعة أفقه ونضوجه الفكري.

لقد حاول ابن باديس في خطابه الإصلاحي الواضح والشامل تقديم الإسلام بطريقة صحيحة مبنيّة على نقل صحيح وعقل صريح مع مراعاة مقتضيات الزمان والمكان والحال. هذه الواقعية اقتضت من ابن باديس الثبات في الكليات والتيسير في الجزئيات والحفاظ على الأهداف مع التنويع في وسائلها، ومن ثَمَّ الانتفاع بكل ما هو جديدٌ بلا ذوبان، والتَّرحاب بكل شيء نافع وصالح، والاستياء من كل تعصّب ممقوت، وجمود مذموم، وضلال مَنكُور.

وقد توصل الباحث خلال دراسته لخصائص الخطاب الإصلاحي في تفسير ابن باديس إلى ثلاث عشرة خاصيّة، هي: الدّعوة إلى استخدام القرآن والسنة، الدّعوة إلى الفهم الصحيح والعمل المستقيم، الدّعوة إلى إصلاح النفوس، الدّعوة إلى الاجتماع والتعاون، الدّعوة إلى النّظام والشّورى، الدّعوة إلى الوحدة والاتحاد، الدّعوة إلى طلب العلم الصحيح، الدّعوة إلى حبّ الوطن، الدّعوة إلى الوضوح في الفكرة، الدّعوة إلى الواقعية والتدرّج في التغيير، الدّعوة إلى الشمول، الدّعوة إلى عفّة اللسان والقلم، والدّعوة إلى المرونة في الجزئيات والثبات في الكليّات.

هذا ولا شكّ أنّ الشّيخ عبد الحميد بن باديس لم يألُ جهداً في خدمة الإسلام والقرآن ولغتهما بكل الوسائل المتاحة في عصره إلى أن أسلم الرّوح إلى باريها. قال سعيد الصالحي: "وإن أنس لا أنسى موظّفاً سامياً فرنسياً استدعى الشيخ عبد الحميد رئيس الجمعية فقال له: إما أن تقلع عن هذه الأفكار وإلا أغلقنا المسجد الذي تنفث فيه سمومكم ضدّنا. فأجابه: لن تستطيع ذلك، وبعد حوار قال له الشيخ: فأنا إن كنت في عرس علمت المحتفلين،

[١] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، الآية: ٣٦ من سورة الإسراء، ص ١٠٦.

وإن كنت في مأتم وعظت المعزين، أو في القطار علمت المسافرين، أو في السجن أرشدت المسجونين، فأنا معلم مرشد في جميع الميادين، فالأمّة استجابت لداعي الله يحييها، وخير لكم أن لا تتعرّضوا لها في دينها ولغتها"[١].

إنّ هذا فيض من غيض، ونطفة من لجّة، مما كان ينبغي أن نقدّمه في هذه الدّراسة عن خصائص الخطاب الإصلاحي لابن باديس، مهندس النّهضة الإسلامية العلمية بالجزائر، وواضع اللَّبِنات الأولى لاندلاع الجهاد المبارك. وأهم من ذلك كله إنه كان سبباً في تثبيت هُوية الجزائر الإسلامية والعربية في وجه الاستعمار الفرنسي.

رحم الله الشّيخ عبد الحميد بن باديس مدى الأيّام ما قرئت صحيفة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء إلى يوم الدّين. ولله الحمد والمنّة. اللّهمّ هذا الجهد، وعليك التّكلان، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل. والحمد لله رب العالمين.

---

[١] السحمراني، أسعد، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، (بيروت، دار النفائس، ط٢، ١٩٨٧م)، ص ٦٠. نقلاً عن: الصالحي، سعيد، **كفاح الشعب الجزائري**، (الكويت، مجلة المجتمع، العدد ١٤٣، ٢٣ صفر ١٣٩٣هـ، ٢٧ مارس ١٩٧٣م)، ص ١٧.

المصادر والمراجع:

REFERENCES

Al Ṣālihī, Sa ʻīd, (1973), Kifāh Al- Sha ʻbi Al- Jazā'irī, Al- Kuwait: Majallat Al-Mujtamaʻ.

Al-Bukhāri, M. I. (2002). *al-Jāmiʿ al-ṣaḥiḥ al-mukhtaṣar*. Taḥqiq: Muṣṭafā Dib al-baghā. Beirut: Dār al-Kutub al-Ilmiyyah.

Al-Ibrahimi, (n.d). *Athār al-Imam Muhammad al-Bashir al-Ibrāhimi*. Egypt: Matb'ah al-Manār.

Al-Kafawi, A. B. (1993). *al-Kuliyyāt: Mu'jam fī al-Muṣtalaḥāt wal-Furūq al-Lughawiyyah*. Taḥqiq: Adnan D. & Muhammad M. Beirut: Dār al-Risalah.

Al-Maraghi, M. A. (n.d.). *Tafsīr al-Marāghi*. Beirut: Dār al-Fikr.

Ibn Badis, A. (1995). *Fi Majālis al-Tadhkir min Kalām al-Hakīm al-Khabīr*. Compiled by: Muhammad S. & Muhammad S. R. Beirut: Dār al-Kutub al-Ilmiyyah.

Ibn Khaldun, A. (1992). *Kitāb al 'Ibar wa Diwān al-Mubtada'*. Beirut: Dār al-Kutub al-Ilmiyyah.

Ibn Majah, M. (1998). *Sunan al-Mustafa*. Taḥqiq: Mahmud H. N., Beirut: Dār al-Kutub al-Ilmiyyah.

Ibn Manẓur, M. (n.d). *Lisān al-ʿArab*. Taḥqiq: Amin M. A. & Muhammad S., Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabi, 3rd ed.

Jamal Al-Din, Q. (1997). *Tafsīr al-Qāsimi*. Beirut : Dār al-Kutub al-Ilmiyyah.

Majmuah minal Asatizah (1996). *al-Mawsūah al-Arabiyyah al-Alamiyyah*. Riyadh: Muassasat a'mal al-Mawsuah li-nashr wa-tawzi'.

Mas'ud J. (1987). *Mu'jam Lughawi Asri*. Beirut: Dār al-Ilm lil Malayin.

Muhammad R. R. (n.d). *Tarikh al-Ustadh al-Imām al-Shaikh Muhammad Abduh*. Misr: Matba'ah al-Manār.

Mujahid Z. M. (1994). *al-A'lām al-Sharqiyyah fil Mi'at al-Rābiah Asharah al-Hijriyyah*. Beirut: Dār al-Gharb al-Islami, 2nd. Ed.

Munir, W. (1997). *Al-naṣ al-Qur'ani minal Jumlah ila al-A'alam*. Qahirah: al-Ma'ahad al-ālami lil Fikr al-Islami.

Murad, M. (2001). *Min Khaṣais Khitāb al-Taghyīr al-Islāmi inda al-Imām Abdul Hamid ibn Bādis*. Al-Qahirah: Majallah al-Muslim al-Mu'aṣir, No.99.

Sa'di, U. (1982). *Urubah al-Jazāir abra al-Tarikh*. Algeria: al-Sharikah al-Wataniyyah lil-Nashr wa Tawzi'.

Turki. (2004). *Jam'iyyat al-Ulama' al-Muslimīn al-Jazāiriyyin al-tārikhiyyah (1931-1956)*. Algeria: al-Muassassat al-Wataniyyah lil-funūn al-Matbaiyyah.

Yāsin, S. (2001). *Al-Mawsūah al-Arabiyyah al-Muyassarah wal-Muwass'at*. Beirut: Muassasat al-Tarikh al-Arabi.